الاتفاق الفرنسوي الانكليزي

استحكم الخلاف بين الانكليز والفرنسويين قروناً ودارت رحى الحرب بينهم سنين عديدة وغلب الوهم على ساسة الامتين وكبارها باستحالة اتفاقها لاعتقادهم ان بين الامتين تبايناً في الاخلاق يستند الى فوارق في النسل . الا ان حركة فكرية نشأت حديثاً حسنت العلاقات بين الامتين وذللت الصعاب القائمة دون اتفاقها واقامت الادلة على ان ما ينعزا من التنافر لم يكن إلا نتيجة سوء التفاهم

نهض بهذه الحركة الفكرية اولاً الكاتب الفرنساوي جان فينو فكتب مقالات شائقة في المجلة الفرنسوية قامت عليها مناقشات بين انكار واستحسان وكان اشد الناس انكاراً لها واستهجاناً الهيئة الحاكمة في فرانسا لاعتقاد رجالها وقتئذ ان هذا الاتفاق مضر بمصالح الامة الفرنسوية التي لا تتفق على الاطلاق مع المصالح الانكليزية . ثم حذت جريدة التيمس التي تمثل الرأي العام الانكليزي وغيرها من الجرائد الانكليزية الكبرى حذو المجلة الفرنسوية فكان لدخولها تأثير كبير في الافكار وانطفأت بها جذوة البغضاء التي كانت تأجج في صدور الامة من عهد بعيد واخذت هذه الافكار تتسرب الى كبار رجال الامتين ينشطها ويغذيها الملك ادورد المحبوب على السواء في انكلترا وفرنسا والذي يذكر لهُ البلدان جميلاً لا ينسى فكان دخولهُ في هذا الميدان اقوى عامل للنجاح

وقد جمع جان فينو مقالاتهِ التي نشرها في المجلة الفرنسوية في مجلد يقع في ثلاثمائة صفحة وطبع غير مرة ونفدت نسخهُ كلها واصبح الحصول على نسخة منها متعذراً او غير ممكن وعندي نسخة من طبعة سنة ١٩٠٠

ثم عاد جان فينو الى نشر بعض تلك المقالات في المجلة الفرنسوية لانطباقها على الحالة الحاضرة فرأيت ان انقل منها ما يلذ الاطلاع عليهِ لانها تدل على بعد نظر الكاتب وعلى ان ما كانت المجاهرة بهِ تحسب جسارة واقتحاماً سنة ١٩٠٠ صار الآن حقيقة راهنة وقوة معنوية لا يستهان بها

تمهيد

تعريف الشعب الفرنسوي الانكليزي

ان مسألة الجنسية التي يرجع اليها رجال السياسة وعلماء الانثروبولوجيا في نظرياتهم تستند الى الاصول التي تفرعت منها الجنسية وعلى تلك الاصول تثبت بذور التباغض

والتنافر بين الفروع وكثيراً ما يقع ذلك من الجهل بمعرفة تلك الاصول او من غلط البحث فيها فالشعب الفرنسوي مثلاً باعتبار كونهِ لاتينيًّا يحب بغيضاً للانكليز باعتبار كونهم شعباً جرمانيًّا . والحال ان الدم اللاتيني فلا يدخل في الشعب الفرنساوي وان الشعب الانكليزي يرتبط بالشعب الفرنساوي بدمهِ وروحهِ القومية ومدنيتهِ ومصالحهِ ارتباطاً لا ينفك واذا جردنا النفس من الغايات وطالعنا التاريخ الفرنسوي الانكليزي وجدنا ان الشعبين المتباعدين لجهل متبادل بينهما يؤلفان فرعين نابتين من جذع شجرة واحدة

ان اهم ما يسترعي النظر في تاريخ نمو الشعبين هو اتفاق مصادر تمدنهما ومشابهة الحوادث التي دعت كلاً منها الى المسابقة لتفوق في ميدان الحياة المشتركة بينهما فكانا يقتتلان غالباً لا عن سوء قصد فيخدم الواحد الآخر منها خدمات جليلة ومتواصلة كأن في تاريخهما وفي حياتهما سرًّا يحوم فوق المشاكل التي تخلقها حوادث الزمن فيقيد بقيدتين من التضامن الادبي والعقلي فتوصل الشعبان بهذا التأثير المتبادل الى ادراك شخصيتهما السياسية والى اكتساب حريتهما والغاء السلطة المستبدة بهما

لا سبيل للاحاطة هنا بما قام بهِ الشعبان من الخدم والفوائد المشتركة لان ذلك يستغرق مجلداً كبيراً فنقتصر على بيان الظروف وايراد الحوادث المهمة التي عاش فيها الشعبان عيشة مشتركة كانت اساساً لاخائهما مدة قرون عن غير قصد وتعمُّد كأنَّ الطبيعة قربت بينهما ليتألف منهما زوجان متحابان لان ما كان بينهما من التنافر كان يصدر عن اختلافات وقتية زائلة فحفظا كيانهما واستفادا من تعاضدهما المشترك بالمحافظة على ذاتيتهما اذ كان كل منها يهبُّ لنصرة الاخر وتخليصهِ من ورطةٍ او ازمة شديدة يقع فيها فتارة تقوم فرنسا لنجدة انكلترا وتارة تقوم انكلترا لنجدة فرنسا بحيث اذا حذفنا من تاريخ كلٍّ منهما صفحات الحوادث التي حصلت بتأثير الاخرى ضاع رونق تاريخ الامتين

نبذة اولى

في فضل فرنسا على انكلترا

(١) الراية الامتين

اعد التاريخ هاتين الامتين من نشأتهما السياسية لان تكونا متحدتين ومتفقتين لان البحر الفاصل بين غاليا القديمة وبريطانيا القديمة لم يمنع اختلاط سكانهما لان قبائل كل من البلدين

كانت لقطن الضفتين ودلت الآثار التي اكتشفت فيها على مشابهة في اخلاقها ومدنيتهما

يعرف من تاريخ السلتيين[1] انهم استولوا على ضفتي البحر واستوطنوها وتسمية بلاد الانكليز بريطانيا العظمى يرجع اليهم لانهم انحدروا اليها من البريتون ويدل على وحدة اصل سكان الضفتين ما قالهُ تاسيتوس[2] عن السلتيين الانكليز « انهم يجاورون الغاليين ويشبهونهم » ثم كثرت القبائل التي سكنت شط البوغاز الا ان السلتيين كانوا اعلى كلمة واكثر نفوذاً وقد خلفوا آثاراً مهمة لا تزال حية الى الآن

ولما هبت القبائل من جرمانيا واثارت الحرب على البلاد التي تجاورها لاحظت معاملة الاهالي في بريطانيا العظمى وفي فرنسا فالجرمانيون المعروفون بالانجل والساكسون استولوا على بريطانيا والمعروفون بالفرانك استولوا على غاليا والفرق بينهما في الكمية وليس في الكيفية لان الفرانك كانوا قليلي العدد فاندمجوا في الوطنيين وتخلقوا باخلاقهم ونسوا لغتهم الاصلية فسارت المدنية في غاليا سيراً قانونيًّا . واما في انكلترا فكان الانجلوساكسون كثيري العدد ومختلفي الطبقات فحافظوا على مدنيتهم ولغتهم وآدابهم وبقيت شقة الخلاف بينهم وبين الاهالي المغلوبين على امرهم واسعة وحلقاتهما متمكنة واضحت بريطانيا تحت خطر الزوح النير الجرماني فجاءت الغزوة الفرنساوية بقيادة وليم الظافر بلسماً لجراحها وخلصتها من المصائب التي كانت تهدد كيانها واكسبتها روحاً جديدة هي الروح الوطنية وروح الوحدة السياسية وكانت تلك الغزوة من اهم حوادث التاريخ الانكليزي اذ منها اخذت انكلترا مصادر مدنيتها العجيبة التي وضعتها في اعلى مقام من العظمة والقوة بحيث يصح القول ان العناية الالهية الساهرة على حسن استعداد تلك الامة وقبولها للرقي بعثت اليها بعثة جديدة من الفرنساويين ليكونوا بمبادئهم وافكارهم ومدنيتهم ركناً عظيماً من اركان التقرب العجيب الذي كان دائماً عرضة للخطر . ويجدر هنا ان نورد بالاختصار سلسلة الحوادث التي جرت في هذا التاريخ

بعد ممات ادورد المعترف[3] وقعت انكلترا بين فارين او كادت تكون فريسة الجرمانيين من اهل الشمال اي السكندينافيين لان هرولد حاول ان يسترجع سلطنة كانوت[4]

---

(١) السلتيون او الكلتيون شعب قوقازي اتى من الشرق وغشي اوربا الوسطى ثم انتشر في غربها ولاسيما في غاليا وجزر بريطانيا وشمالي ايطاليا واباده الرومانيون (٢) مؤرخ روماني شهير ولد نحو سنة ٥٥ ق م وتوفي في بدء ملك ادريانوس وتزوج بنت اغريكولا وحصل على كل درجات الشرف

(٣) ملك انكلترا مات بلا عقب واوصى بالملك لهرولد وهو الذي قهرهُ وقتله وليم الظافر سنة ١٠٦٦ في موقعة هاستنغس (٤) ملك الدنمارك وانكلترا توفي ١٠٣٥

فاخفق ونجا بنفسه فقام وليم دوق نورمانديا وادعى تاج انكلترا فجنّد جنداً من اهالي بريتونيا وبيكارديا ونورمانديا واتى بريطانيا العظمى فانحاز وانتصر انتصاراً باهراً في موقعة هاستنجس وخلاله الملك في انكلترا

لم يقتصر فوز وليم الظافر عند حد الفتح بل نجح نجاحاً كبيراً في ما اخفق به الجرمانيون لان انكلترا عاشت تحت الحكم الفرنساوي برخاء وامتلأت الامة بالاداب والمبادئ الفرنسوية ورسخت فيها رسوخاً لا يمحى وتفاهمت الامتان وتبادلتا الحب وشربتا كؤوس الصفاء وعاشتا معاً مدة طويلة مشتركتين في السراء والضراء واخذت كل منهما عن الاخرى مآخذ ثبتت في نسلها بكرور الاحقاب فاصبح من العبث ان تتباغضا وان تثير الواحدة على الاخرى حروباً طاحنة

والفرنسويون يحملون لغتهم الى كل ارض يطأونها فجعلوا نشرها فاتحة اعمالهم بعد الفتح فاستهوت بجمالها الانكليز وانتشرت الاشعار والاغاني الفرنساوية في طول بريطانيا وتنبهت قرائح الشعراء السلتيين فافاقوا من سباتهم وجددوا ثوب آدابهم العزيزة لديهم وتفوقوا على العنصر الانجلوساكسوني . وانصرفت الحكومة الى التوفيق بين القبائل المتخاذلة وايدت الحكومة المركزية في البلاد فاوجدت بذلك روح الوطنية وابرأت البلاد مما حاق بها من مصائب الحروب الاهلية واخذ الفرنسويون يتقاطرون بكثرة الى انكلترا فحسن نظام المعيشة فيها كثيراً . ويستفاد من مؤرخي ذلك العصر (مثل وليم اوف مالمسبري) ان الانكليز كانوا ينفقون اموالهم على الولائم والافراح والمكرات ويسكنون المساكن الحقيرة والزرية واما الفرنسويون فكانوا يأكلون المآكل الطيبة باعتدال وترتيب ويلبسون الملابس الجميلة ويسكنون المنازل الفاخرة والنظيفة . فهذه المباينة في العادات استدرجت الانكليز الى تحسين معيشتهم والى معرفة مبادئ الوطن الاولية وهؤلاء لبوا الدعوة الى التمدن والتمدين واكتشفوا مكامن قوتهم وعظمتهم

بعد ثلاثين سنة من دخول الفرنسويين البلاد انتشر الانشاء القالي وعقبه الانشاء الروائي وانشأوا بعد موت الملك يوحنا ٥٥ مدرسة وبرهنوا على افضلية سياسة وليم الظافر وحاشيته بدهاء ولطف يستحقان الاعجاب في ذلك العصر لانهم احترموا القديسين السلتيين والقديسين الانجلوساكسونيين احتراماً واحداً وكانوا ينشرون اسماء الفريقين في التقاويم السنوية فساد الاتفاق في البلاد التي ظلت قروناً عديدة مرتعاً للفتن والاحقاد

وبين فضل فرنسا وما قامت به من الخدم الجليلة للبلاد من المقابلة بين ما كانت عليه قبل موقعة هاستنجس وبعدها في القرن العاشر كانت انكلترا هدفاً للغزاة من دنماركيين

وسلتيين وساكسونيين وكل غزاة الشمال واضطر الساكسونيون سكان البلاد الاصليون ان يهجروها و يمتنعوا في الحراج ليتقوا جور الحكام الاجانب وظل الدنماركيون يحكمون البلاد مدة خمسين سنة باستبداد لا حدّ لهُ

ولما استوى ادورد المعترف على عرش اجداده لم يستطع ان يكسر شوكة البارونات الساكسونيين لانهم كانوا اشد منهُ ساعداً وكان واياهم على طرفي نقيض من حيث التربية والاخلاق فهو ربي في نورماندیا واخذ عنها الشمائل اللطيفة والمدنية الراقية واما هم فجفاة الطباع سيئو التربية والاخلاق يرتكبون المحارم الكثيرة و يأتون العيوب الشنيعة بلا رادع ولا وازع فكان يتأفف من تلك الحالة و يغض الطرف عنها مكرهاً. وكان الانجلوساكسون في ذلك الوقت على غاية الجهل يندر بينهم من يعرف ان يقرأ او يكتب وكانوا يحلّون اذرعهم بالاساور الذهبية و يتبارون بها ويشمون ابدانهم بالوشامات الملونة والكثيرة الاشكال و يبذرون اموالهم على موائد الطعام وعلى الخلاعة والسكر واما الفرنسويون والنورمانديون فالمؤرخ الساكسوني يثني عليهم اطيب ثناء من حيث التربية ونظام المعيشة ويقول انهم يكرمون الغريب كالوطني ولا يستنكفون من الزواج بالساكسونيات

ثم ان الساكسونيين انفسهم كانوا راضين كل الرضى عن استيلاء وليم الظافر على عرش انكلترا ولما قام هارولد احد بارونات الملك ادورد يدّعي حق وراثة العرش لم يؤيدوهُ في دعواهُ فانبرى لهُ وليم واستفتى البابا في ذلك فحكم لهُ وبعث اليهِ بالحكم مع العلم المقدس فصارت غزوة امير نورماندیا بهذه الواسطة دينية مقدسة اثارت الحمية في نفوس الفرنسويين فهبوا من كل انحاء البلاد لتأييد ذلك الحكم المقدس الذي لا تنقضهُ الاحكام المدنية وكان النورمانديون اقلّ عدداً من سواهم لاعتقادهم بفشل الحملة واما البريتونيون فكانوا جمماً غفيراً وقد اتوا الى نورماندیا وعلى رأسهم امیرهم كونان لمقاتلة وليم فمات كونان في الطريق فانضموا الى وليم

جاء وليم انكلترا فاتحاً فكان بعد الفتح افضل الامراء واكملهم لانهُ بعد بضع سنوات وطد الملك على دعائم قوية وسن نظاماً يشبه نظام شارلمان فحل النظام محل الفوضى التي كانت في عهد الحكام الانجلوساكسون وسادت في البلاد ملكية عادلة رشيدة قوية تعضدها قوة مدربة هي قوة الكنيسة وقد بلغ نفوذ وليم حدّاً فائقاً قال فيهِ احد مؤرخي الساكسون « لو انفسح في اجلهِ سنتان اخريان لافتتح ارلندا بدون سفك دم » فقد اقام العدل ووضع المبادئ الاولية للجندية المنظمة وبنى القصور الفخمة في انحاء البلاد واعلن احترام التملك

الشخصي وبالاجمال ساد في عهده السلام في البلاد التي كانت مرسحًا للمذابح والفوضى

لا ينكر ان الفتح يخالطهُ بعض المصائب والاضرار لانهُ لا يحصل الاَّ باستعمال القوة الاَّ ان الاضرار التي وقعت من فتح وليم لا تعد شيئًا بالنسبة الى ما حصل منهُ من الفوائد ولا سيما ان توطدت بهِ اركان المملكة وتولدت القوة الانجلوساكسونية

والخلاصة ان التمدن الفرنساوي رسخ في انكلترا وظهر فيها بكل صفاتهِ وهيئاتهِ كالشعر والاغاني والقصص التاريخية والروايات الحماسية الاَّ ان الفاتحين لم يقاوموا الوطنيين ويمنعوهم من التغني باساطير اسلافهم فكانوا يعملون للتوفيق بين الفئتين والتقريب بينهما وهذا من محاسن الفرنسويين التي جعلت الوطنيين يحبونهم ويميلون اليهم

في ما كان للفرنسوية من التأثير في الانكليزية وآدابها

تمكنت اللغة الفرنسوية وآدابها في البلاد ولم ينحصر استعمالها في رجال الحكومة بل تعدى الى طبقات الشعب فكان الكبراء يحسبون التكلم بها من كمال المدنية ومن لزوميات الوجاهة واندفعت العامة الى استعمالها تشبهًا بهم فتقلصت اللغة الانجلوساكسونية امامها حتى كادت تموت واصبح من العبث صد هذا التيار لان الشعب صار يجتلب استعمالها والكتَّاب يستميلون الكتابة بها والشرائع تكتب وتنشر بالفرنسوية وبقي الحال على هذا المنوال الى ان ملك هنري الثامن[1] . ولم يكتفِ الانجلوساكسون بدرس اللغة الفرنسوية وآدابها التي تخترق مسام الحياة العامة بل كانوا يذهبون الى فرنسا لاتمام دروسهم في جامعة باريس حتى انهم في القرن الرابع عشر كانوا اكثر عددًا من طلبة سائر البلاد

ومما سهل بنوع خصوصي فوز الفرنسوية وانتشارها ما حصل قبل الفتح فانها كانت في القرن الحادي عشر لغة بلاط الملك ادورد الملقب بالمعترف لانهُ اقام في نورماندیا سنين عديدة فغلب عليهِ استعمالها ودفعهُ حبهُ لفرنسا بان جلب عددًا كبيرًا من النورمانديين وقلدهم المناصب العالية فراجت اللغة واصبحت لغة الاشراف يتفاخرون بها ويمتازون باستعمالها عن سواهم وقد ذكر ذلك انفولتوس المؤرخ المعاصر

ان ذلك النبات المنذي نقل الى انكلترا فتأصل فيها ونما واخصب وتنوع تركيبهُ بتنوع الاقليم والتربة واصبح كل ما ينمو هناك يحتوي على جزء من الاصل الفرنسوي فهو يتخلل كل ظواهر الحياة من النظام السياسي الى الشعر الى الروايات الى الفلسفة الى العلم الى الفنون .

(١) صدر قرار من البرلمان سنة ١٣٤٢ بوجوب منع استعمال اللغة الفرنسوية منعًا قطعيًا في بعض المسائل الشرعية وفي الاعمال العمومية وهذا دليل على انها بقيت تستعمل حتى القرن الثامن عشر

على ان تمكن ادب اللغة الفرنسوية لا ينتج عنهُ اضمحلال آداب امة البلاد بل كان غشاء واقيًا كثير الغناء ومتكاتفًا بالعمل مع شقيقهِ فساعدهُ على انمو التدريجي ولما كمل نموهُ استطاع ان يقوم بنفسهِ بواسطة قواهُ الخاصة وهكذا حفظ هذا الكنز في مخزنهِ واختص لنفسهِ جواهر تعاليمهِ الى ما شاء الله

وعليهِ كانت كلما ارتقت اللغة الانجلوساكسونية وتقدمت بادابها استعارت كثيرًا من العروض الفرنسوية واخذت مفردات جمة من قاموس اللغة ونقلت افكارًا ومبادئ من الأدب الفرنساوي المهذب والعامي وكانت هذه الاستعارات والملاحظ تدخل الى الغرف الانجلوساكسونية القديمة بغزارة نادرة فتحيي آدابها وتحسنها واصبحت اللغة بها غنية ومتناسقة . فادب اللغة الانجلوساكسونية في القرن الرابع عشر لم يكن شيئًا مذكورًا خلا ترجمات الروايات الحماسية الفرنسوية وكان كثيرون من الشعراء ينظمون الشعر باللغتين فيجعلون الصدر بالانكليزية والعجز بالفرنسوية وكان الكتاب الوطنيون يكسبون كتاباتهم رونقًا ويزيدونها بلاغة بتقليدهم الكتاب الفرنسويين وباستعارة اسلوبهم وافكارهم ويدخلون الكلمات الفرنساوية في ترجماتهم بمعناها ومعناها حيث ليس في الانكليزية ما يقوم مقامها او يحولونها الى الصيغة الانكليزية فيبقى فيها صدى الفرنسوية الشائق الوخيم . وقد كثر عدد المفردات المنقولة والمحوتة الى حد كبير قال فيهِ سكيت صاحب المجموعة المشهورة ان ما اخذتهُ اللغة الانكليزية عن الاصل الفرنسوي واللاتيني هو مضاعف ما اخذتهُ عن الجرمانية . وقال هيوم في كتابهِ تاريخ انكلترا ان قسمًا كبيرًا من اللغة لو اجمل ما فيها من اساليب التعبير مأخوذ عن الفرنسوية . فحاجة الانكليزية الى الاخذ عن الفرنسوية مهدت لها سبيل البساطة وجعلتها لغة سهلة المراس وقريبة المنال وجعل فيها مرونة تأثيرة المثال واكسبها قوة كبيرة للنمو والاتساع فاقتصرت في صرفها ونحوها على اسهل اسلوب للتعبير وجعلت كل ما هو ذكر مذكرًا وكل ما هو انثى مؤنثًا وما ليس كذلك مجردًا اي لا مذكرًا ولا مؤنثًا واهملت تصريف النعوت واضافت الافعال المساعدة الى تصريف الافعال فاصبحت جلية وسهلة وزادت موسوعاتها كثيرًا حتى عدت اغنى اللغات مفردات . وانما قرض الشعر فامتاز بهِ الانكليز في بدء اشتغالهم بهِ الأ ان افكارهم واساليبهم كانت تتجه دائمًا الى الشعر الفرنسوي فتشابه الشعران من كل الوجوه ما عدا اللهجة التي تميز اللغة الواحدة عن الاخرى حتى ان لغة شاكسبير وبيرون لم تبلغ ما بلغت من المقام السامي من حيث المتانة وحسن التعبير الأ باستعارة الالفاظ الفرنسوية واقتباس اساليبها التي لا تماثل

فالشعراء والكتاب الانكليز مدينون بهذه النهضة لزملائهم الفرنسويين بحيث يرجع لذهنهم في كل عبارة يكتبونها او في كل كلة يسمعونها ان ذلك اثر من آثار الفرنسويين مؤسسي نهضتهم

(٣) امتزاج الروحين

على ان تأثير الفرنسويين الذين اتوا مع الدرق وليم الى انكلترا لم يقف عند هذا الحد لان الشعبين امتزجا امتزاجاً تامًّا فاخذ كل منهما عن الآخر ما اخذ توارثتها الاعقاب وحفظتها قروناً عديدة جريًا على ناموس البيولوجيا لان الارملة اذا تزوجت وولدت اولاداً ظهر فيهم بعض المشابهة لزوجها الاول. فالحياة المشتركة تؤثر في اعضاء وتحدث فيها تنوعات مهمة فلا بد من ان امتزاج الروحين الفرنساوية والانجلوساكسونية قروناً عديدة قد فعل فعلهُ من هذا القبيل

تلطفت الاخلاق القومية وتقاربت الاميال واتحدت الافكار واصبح الشعبان بتأثير الوسط والحوادث التاريخية شعباً واحداً بالظاهر ومالا غريزيًّا الى الاتحاد والاتفاق التامين

ويستفاد مما ذكر آنفًا ان الاتفاق الانكليزي الفرنسوي وان يكن حصل بظروف الفتح الغليظة فنتائجهُ كانت ملائمة لمستقبل انكلترا اذ به ادركت قوميتها وحسنت لغتها وشعرها وعرفت القواعد الجوهرية لمدنيتها المستقبلة

وما خلا ذلك فقد افادها هذا الفتح فائدة كبرى من حيث مساعدة الجند على اعطاء الحرية التامة للاهالي وتمتع الشعب باستقلالهِ المدني

(٤) منافع الغزوة النورماندية

جرى وليم على خطة الفاتحين فوزع اراضي انكلترا على فرسانهِ واخصائهِ وفرض عليهم فروضًا اخف من الفروض التي كانت على اتباع ملك فرنسا فضعفت بهم شوكة البارونات واصبح البارونات الانكليز في القرن الحادي عشر اضعف من بارونات اوربا الذين كانت تنتقل اليهم السلطة في المقاطعات بحق الارث ووضع اليد فكانوا اقدم سيادة واكثر تفوذاً من ملوكهم فادى هذا الضعف الى نتيجة مهمة في تاريخ انكلترا لانهُ كان يحول دون خروجهم على ملوكهم ودون اتفاقهم على الثورات التي يثيرونها ويضطرهم الى طلب المساعدة من الوطنيين والفلاحين واذا احرزوا نصراً عاد الفضل فيهِ الى تلك المساعدة فادركت العامة حينئذٍ حقوقها الشخصية والمدنية واضطر الاشراف الى التساهل للاتفاق معها فاتفقت الفئتان على مطالبها اتفاقاً غايتهُ الاولى مصلحة الاشراف وفائدتهُ الكبرى عادت على الشعب. وفي سنة

١٢٦٩ ارسل الاشراف دعوة صريحة لسكان المدن والقرى ليدافعوا عن حقهم المشترك فادرك الشعب اهميتهُ في ادارة المملكة وعرف ما لهُ من القوة والفائدة وادرك بنوع خصوصي حقوقهُ المدنية فصار يراعيها ويحافظ عليها ويشتغل على الدوام للتوسع بها وقال غيزو ان الحقوق التي نضت ان تقيم في انكلترا حكومة حرة قد عرفت معرفة تامة سنة ١٣٠٠

وتبين الفوائد التي حصلت عليها انكلترا من هذا المركز الخصوصي المدينة بهِ للاحتلال الفرنسوي من المقابلة بين تاريخها وتاريخ فرنسا . ففي اوربا كانت هوة عميقة تفصل بين الاشراف والعامة واما في انكلترا فكانت الامة عبارة عن مجموع من الوطنيين الاحرار تحت سلطة رسمية للاشراف وكانت الامتيازات الاجتماعية فيها امتيازات ظاهرية لا تأثير لها في جوهر الحرية . واما في فرنسا فانقضت قرون عديدة قبل ان يصل الشعب الى هذا المركز الذي كانت تتمتع بهِ جارتها انكلترا وسنرى فيما يأتي ان الثورة الكبرى التي يفاخر بها الشعب الفرنسوي انفجرت وتكللت باكليل النصر بفعل التأثير الانكليزي . وبما ان انكلترا سبقت فرنسا باكتساب الحرية قروناً عديدة كان لهذا السبق تأثير جوهري في تكوين الخلق الانكليزي وبهِ تمتعت ثقتهم بوصاية الحكومة ورسخت فيهم الصفات العالية من الذاتية والثقة بالنفس وعلى عكس ذلك كان الفرنسويون فقد رضخوا عهداً طويلاً للتقيد الشديد فضعفت اخلاقهم وانحطت فيهم روح المعرفة والتقدم

وكفى بهذه الحوادث دلالة على قيمة اختلاط الشعبين السياسي لتكوين الخلق الانكليزي وتأثير هذا الخلق فيما بعد على الخلق الفرنسوي

(٥) نمو القرائح الانكليزية

قلنا سابقاً ان اداب اللغة الانكليزية نشأت تحت تأثير اللغة الفرنسوية ونقول هنا انها نمت وارتقت تحت هذا التأثير لان تشوسر نفسهُ الذي ينسبون اليهِ الفضل بتحرير لغة وطنهِ من التأثير الاجنبي انما غذى عقلهُ بكتابات الكتاب والمفكرين الفرنسويين وكان اعجابهُ بهم كبيراً . والروح الفرنسوية تتخلل كل كتاباتهِ . وكل المواضيع التي طرقها مواضيع فرنسوية واجمل ما فيها مأخوذٌ عن رابله وموليير . ويقول بعض المتخصصين ان ذوق تشوسر الفرنسوي ولغتهُ الفرنسوية الانكليزية خاصان بهِ فردٌ هوايت الذي جمع مؤلفات ذلك الشاعر العظيم على ذلك بان لغة تشوسر لم تكن لغة ذلك العصر والا لما حسب افضل شاعر وطني واجود كاتب ظهر في العصر المتوسط

اذا ضربنا صفحاً عن الكتابات التي صدرت في عهد تفوق اللغة الفرنسوية وامتزاج

الانكليزية بها امتزاجاً تاماً والتفتنا الى الكتابات الانكليزية المستقلة حيث ظهر ادب اللغة باعلى مظاهره وجدنا اثراً عظيماً واضحاً للاستعارة في اوسع الكتاب شهرة واوقدهم ذهناً واذكاهم قريحة كشاكسبير وغيره من فطاحل الكتاب الانكليز الذين ما فتئوا يأخذون عن فرنسا ويستفيدون من محاسن تمدنها

استعار شاكسبير[1] كثيراً من فرنسا وارتوى شعره من نبع فرنسوي فزاد به متانة ورقة شعور . ومجموعة تآليفه السامية والخالدة تدل على مرحلتين من حياته العقلية تنتهي الاولى وتبتدئ الثانية بعد وقوفه على ترجمة مونتاني التي ابهرته وخلبت لبه وكأن شعاعاً الهياً صدر منها فانار طريق حياته وفتح امام قريحته الوقادة المشاهد الكبيرة والمتسعة فغاص فيها بشغف وابرز تآليفه الخالدة التي استحق بها ان يكون شاعر الناس كلهم على الاطلاق . قال فيلارت في كتابه (تاريخ الكلتيرا في القرن السادس عشر) «ان شاكسبير منذ ذاك انقلب انقلاباً تاماً فكان يقلد اولاً بترارك واريوست وبعد ١٦٠٣ عدل عن اخذه عن ايطاليا وعن السجع المتراصف واخذ مونتاني يتخلل اوثلو وهاملت وكورلايون » وحاول جاكوب فيس الالماني ان يبرهن على ان هملت ليست الا مونتاني كملت فيها ظواهر الحياة واثبت جون روبرتسن في كتابه (المقابلة بين شاكسبير ومونتاني) ان مبادئ مونتاني اثرت تأثيراً كبيراً في حياة شاكسبير الخاصة وسيرتها على مبادىء الكاتب الفرنسوي

انتخب شاكسبير بذكائه المتوقد افضل الحكم واشرف المبادىء وادخلها في تآليفه ففي رواية « العاصفة » مثلاً ترجمة تامة لشذرة مشهورة لمونتاني وهي كانيبال وما عداها فان المبادئ والافكار التي اثارت حمية باسكال وجان جاك روسو هي نفسها فعلت في شاكسبير واثرت في تصوراته

ويقول سنت برف ان كثيرين من الكتاب الانكليز اخذوا عن مونتاني ومنهم السير توماس برون الذي كان له اوسع شهرة في آداب اللغة الانكليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر

وهنا افاض المؤلف في مآخذ السير توماس برون وغيره من مشاهير الكتاب الانكليز مما لا يخرج عن حد ما سبق عن شاكسبير ولا يهم قراء العربية الوقوف عليه لانه يتكلم على المقابلة والمقارنة بين آداب اللغتين مما تهم معرفته اصحابها فضربنا صفحاً عن نقله

(١) اعظم واشهر شاعر انكليزي واعظم روائي هزلي (دراماتيك) (١٥٦٤ — ١٦١٦) له ٣٦ رواية من اشهرها روميو وجوليت وهملت وماكبث واوثلو

ويقال بالاجمال ان مشاهير الانكليز من كتاب وعلماء وفلاسفة كانوا كثيري الاعجاب بمدنية فرنسا وآدابها وسلاسة لغتها وحسن اسلوبها وبيانها واقتدار كتابها ومؤلفيها كمونتاني وجان جاك روسو وباسكال وراسين وموليير وكثيرين غيرهم فكانوا يتحدونهم باساليبهم ويتقنون عباراتهم وتعابيرهم بنتف من التعابير والعبارات الفرنسوية وظل الذوق الفرنسوي سائداً في انكلترا حتى حكومة الرستورايشن لان الاشراف الذين طردهم كرومويل لجأوا الى فرنسا واقتبسوا ما فيها من المبادىء والافكار حتى ان بلاط تشارلس الثاني كان فرنسوياً اكثر منهُ انكليزياً. وقال تاين في كتابهِ (تاريخ آداب اللغة الانكليزية مجلد ٣) ان المؤلفين الفرنسويين اساتذة يتداول مؤلفاتهم احسنُ مخرجي الانكليز. وتتم كتابات ذلك العصر على صدق ذلك. ومن ثم فقد كان اصحاب الكياسة والتأنق يميلون الى الظهور بالمظهر الفرنسوي الخالص

(٦) الصداقة والاعجاب المتبادلان

اتفق الكتاب ورجال الحكومة والفلاسفة والفنيون على المنافع التي نجمت من الاتفاق الاخوي بين التمدن الانكليزي والروح الفرنسوية لانهُ لما زالت الغايات التي كانت تلقي غشاوة على الروح الوطنية عبر المانش وتغرس الحزازات في النفوس اعترف بجميل فرنسا حتى صار وردسوارث الشاعر لا يجاب الاسقف وطن بل يونبهُ على تحاملهِ على فرنسا فقال فيهِ انهُ «اطلق سهماً على الحرية والفلسفة اللذين هما عيون النسل البشري» وقال في تغلب الفرنسويين على الانكليز «ان الانسانية التي في فرنسا انتصرت على انكلترا التي ليست الا جزءاً منها» ولغيرهِ من كبار شعراء الانكليز اعجاب كاعجابهِ بفرنسا تدل اقوالهم على ما كان لفرنسا من الاثر الجميل الذي تحفظهُ الامة الانكليزية

فالتغالي بهذه الشعائر الشريفة كان لهُ صدى شديد واثر حسن في فرنسا لان الروح الانكليزية التي بلغت حد الغلو بالتأثير الفرنسوي انتقلت الى فرنسا في القرن الثامن عشر فوجدت بيئة حسنة الاستعداد لقبولها برغبة شديدة فسار الانكليز والفرنسويون من جانبي البحر مع تيار تلك العواطف التي كانت مدة طويلة ثم انفجرت انفجار السيل العرم فهدمت السدود والحواجز الصناعية وبلغت حدودها الصحيحة فتمكنت الروح الانكليزية في فرنسا وطبعت على حياة الامة رسماً لا يمحى

فامتزاج هاتين الروحين هو ظاهرة من ظواهر اتحاد تمدن الامتين ومن اهم حوادث القرن الثامن عشر. وسنأتي في المقالة التالية على مآثر انكلترا وما استفادتهُ فرنسا منها

الدكتور امين ابو خاطر